على طريق الأصالة

(٦)

تأصيل القيم والمفاهيم

أنور الجندي



بسم الله الرحمن الرحيم

تأصيل القيم والمفاهيم

إن محاولة تأصيل واسعة تطرح نفسها بقوة فى أفق الفكر الإسلامى وهى تصل اليوم إلى أبعاد مختلفة ويجب أن لا تقف عند مجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع بل تتعدى ذلك إلى مجال العلوم والفنون وإلى مجال الحضارة والمعمار فى سبيل إحياء أسلوب العمارة الإسلامية بعد أن طغت ظاهرة العمارة الغربية كجزء من خطة التغريب التى تهدف الى تقبل أنواع الفنون المعمارية الأجنبية دون تقدير لوجوه الحاجة والمنفعة والمظهر الأصيل.

• • •

إننا مطالبون بثلاث :

(أولا) : بإعادة النظر فى كل ما يقدم لنا من نظريات فى ضوء الإسلام .

(ثانياً) : إعادة تصميم المرحلة السابقة من تاريخنا المعاصر)

(فكراً وأدباً وثقافة) تلك التي أطلق عليها : جيل الرواد والقمم الشوامخ .

(ثالثاً) : التخفف من المصـــطلحات الأجنبية المعبرة عن تصورات ومصالح أجنبية غربية عن كيان الأمة الإسلامية ومصالحها مع تأكيد الالتزام بمصطلحات نابعة من عقيدة الأمة وتاريخها وتراثها وجوهر فكرها وشخصيتها الاسلامية .

. . .

إننا مطالبون بالمحافظة على التميز الذاتى لشخصيتنا الاسلامية ، والانطلاق بها على نحو تجدد بها نفسها دون أن تقع فى مأزق الجمود أو الانصهار .

إن نقطة الانطلاق هى أن يعترف المجتمع بانتمائه إلى الاسلامية ، وما يتبع هذا الانتماء من إلتزام وسلوك .

إن هناك هدف وراء مؤامرة الاحتواء والحصار التى تقوم بها قوى التغريب والغزو الثقافى هى إخراج المسلمين من منهج حياتهم الأصـــيل الذى رسمه لهم القرآن الكريم وإزالة التمييز الخاص الذاتية الاسلامية .

إن للإسلام مقاييسه الواضحة فى النظر إلى أمور الثقافة والبحث

•

العلمى والتاريخ تختلف إختلافا واضحاً عن تلك المفاهيم الوافدة ، فهى مستقاة من الفطرة الأصيلة ومن القيم الأساسية ، التى عرفتها أمتنا منذ أربعة عشر قرناً بينما لم تعش المفاهيم الوافدة أكثر من مائة عام .

إن التغريب هو الاحتواء والانصهار فى بوتقة الأممية .

إن الحفاظ على الكيان (العقيدة واللغة والتاريخ) يتطلب بقاء واستمرار عامل القدرة على المقاومة والمرابطة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والاستعداد لمواجهة كل عدوان .

• • • •

ماذا نأخذ وماذا نعطى فى صلاتنا الفكرية والأدبية والفنية بالعالم أجمع ؟

إن المسألة ليست مجرد أخـــذ وعطاء . ولكن يجب أن نحدد لأنفسنا ماذا نأخذ وماذا نعطى ، وما هو المعيار الذى نأخذ به ونعطى ، وما هو الطابع المميز لشخصيتنا الفكرية بين الأخذ والعطاء .

لكلا التيارين الوافدين (الغربى والماركسى) أتباع وحواريون وكهان وما استطاع فكرنا أن يهضم ما قدموه أو يحوله إلى عناصر فى شخصيتنا لأنه يختلف معها فى الجذور ولأن عطائنا الحقيقى لا يجعلنا

فى حاجة إلى إقتباس ، إن طابع الإسلام لايقبل المشاركة أو المداخلة أو الاحتواء .

. . .

فى الغرب يقولون إن نظريتهم هى مزاج بين الفلسفة اليونانية والقانون الرومانى والدين المسيحى وفى الشرق يقولون إن الماركسية مزيج من الفلسفة الألمانية والاقتصاد الانجليزى والفكر السياسى الفرنسى ، أما نحن فإن الإسلام يجعل التوحيد أساساً لتقبل أى مفهوم فى إطار الإسلام ومن قبل كان كذلك موقفه من فكر الوثنية الفارسية والمادية الاغريقية والكابالا الهندية ، وسيظل طابع الإسلام واضحاً مهما حاولوا ربطه بالديمقراطية أو القومية أو الاشتراكية . فالإسلام لا يقر المزج والتركيب مع الفكر البشرى .

إن هذه الدعوات لن تعيش إلا قليلا : تلك التى تخلط بين الإسلام والقومية أو الإسلام والماركسية .

(٢)

هناك نظريتان تكشف النظرة الأولى لها بأنهما متناقضتان ولكن بشىء من التأمل نجد أنهما متكاملتان :

نظرية الوحدة البشرية ونظرية التمايز القومى الخاص ذلك أنه

هناك خصائص عامة توجد حيث وجد الإنسان ، فالإنسانية كلها تلتقى عليها ، وهناك خصائص ذاتية لكل أمة نتيجة دينها وعقيدتها ولغتها وثقافتها ،

فالعلوم والمعارف عامة والثقافات خاصة .

ويمكن لكل أمة أن تنتفع بالعلوم والمعارف العامة كما تشاء ولكنها يجب أن تكون حذرة فى إقتباس الثقافات حتى لا تطغى أى ثقافة واحدة على معالم ذاتيتها الخاصة فتذيبها فى بوتقتها أو تحتويها .

وقد أعطى الإســـلام للأمة الإسلامية تميزاً خاصاً وهوية واضحة هم مطالبون بالمحافظة عليها وحمايتها والحيلولة دون إنصهارها فى الأمم الأخرى

وقد تتلاقى الأمم الغربية أو تختلف ولكنها فى النهاية تدين بدين واحد يختلف عن الإسلام .

ويعطى التمايز الثقافى إختلافاً واضحاً فى قضايا متعددة :

منها قضية العلاقة بين الرجل والمرأة وبناء الأسرة .

ومنها قضية التعامل الاقتصادى .

ومنها قضية التعامل مع المجتمعات بالأنانية أو الغيرية .

ومنها النظرة العامة المادية فى الغرب والجامع بين الروح والمادة فى الإسلام .

وفى إطار الاسلام فإن الخلافات فى الوطن والبيئة والعادات والتقاليد تكون يسيرة وقليلة بالنسبة للإلتقاء الواسع العميق فى المفاهيم العامة : إجتماعية وسياسية واقتصادية .

(٣)

إن من أخطر ما يواجه المسلمين اليوم أن يجدوا بين أيديهم دراسات ومؤلفات تقدم لهم الفكر الإسلامى من وجهة نظر غربية مسيحية أو ماركسية إشتراكية وكلتاهما تختلف إختلافاً أساسياً عن مفهوم الإسلام الأصيل الذى هو أيدلوجية كاملة ومنهج حياة ونظام مجتمع .

هذه الدراسات يجب النظر إليها بحذر شديد وشىء من الشك فى هدفها ، ذلك أنها لم يقصد بها تقدير الفكر الإسلامى أو وضعه فى ميزان الانصاف ولكن قصد بها إلى إنتقاصه والغض من شأنه بهدف واضح هو تغريب الفكر الإسلامى الربانى المصدر وتزييف مناهجه وإثارة الشبهات حول حقائقه

ويتمثل هذا العمل فى عديد من دوائر المعارف التى نجدها بين

أيدينا الآن فى كل المكتبات العامة وفى الجامعات وفى المعاهد التى يتلقى فيها أبناؤنا العلم ، ونجد هذه الموسوعات ميسرة جداً فى أيدى شبابنا فى كل وقت يحتاجون إليه ومن هنا يكون الخطر لأن هذه للموسوعات الميسرة مسمومة فى كثير من مواردها وأنها لا تقدم المفهوم الصحيح الذى يمثله الإسلام فى جوهره الحقيقى ، لذلك فإن علينا أن نكون على حذر فى مواجهة هذه الموسوعات : دائرة المعارف الإسلامية ، المنجد ، الموسوعة العربية الميسرة .

إنتقل المسلمون يقيناً فى مطلع القرن الخامس عشر من مرحلة التبعية إلى مرحلة الرشد الفكرى واستكشاف الذات وإقرار الطابع الأصيل للشخصية العربية الاسلامية التى تستمد وجودها وكيانها من قيمها الأصيلة ومن تاريخها الحافل بالأمجاد .

• • •

أربعة شخصيات ليست هى شخصيتنا الحقيقية :

المصرية الفرعونية ، العربية قبل الاسلام (الجاهلية) ، اليونانية ، الأوربية الحديثة .

إن الذين يتغنون بالفرعونية عليهم أن يعلموا أن الفرعونية ليست جنساً من أجناس البشر ولكنها عصر من عصور الحكم.

• • •

إن محاولة فصل الدين عن السياسة كان أول من إبتدعها فى عالم الاسلام مصطفى كمال أتاتورك بجهد ضخم من الاستعمار الذى غذى هذه النظرية وعمل على إشاعتها كانت من أخطر الاطروحات التى ما يزال العالم الاسلامى يواجه أخطارها وتحدياتها.

كان فصل الدين عن الدولة وإثارة دعوى القوميات والاقليميات هى المفتاح الذى حقق للصهيونية الوصول إلى فلسطين وكانت الخلافة الإسلامية والنظام الاسلامى هما العائق أمام تحقيق هذا الهدف الخطير.

• • •

كل نظرية تفصل العرب عن تراثهم وتصنعهم فى نهج جديد مستقل لن تصلح: إن الخطط التى سارت عليها تجربة القومية العربية قد باءت الفشل وهى التى أثمرت نكسة ١٩٦٧ وإن هناك مفهوماً جديداً

للعروبة مرتبطاً بالإسلام قد قام الآن وأصبح مكوناً ، وكذلك سقطت كلمة (الثورة) بمفهومها الديكتاتورى والماركسى ، إن العرب لن يقبلوا وجوداً قومياً منفصلا عن الدين أو الاسلام (جغرافياً) ، أو عن العقيدة الاسلامية (تاريخياً) .

لقد ثبت بعد هـــذا الجهد الضخم الذى بذل لتحقيق الوحدة العربية فشل هـــذا الجهد وفساده ، لأنه لم يبدأ من طريق الأصالة .

لقد ظن الكثيرون أن الوحدة العربية غاية بينما هى مرحلة على الطريق : طريق الوحدة الاسلامية .

ومن ثم كانت كل المحاولات التى قادها دعاة القومية معوقاً لهذه الوحدة عن أن تتخذ طريقها الصحيح .

• • •

إن محاولة فرض مفهوم قومى عربى على الثقافة العربية الاسلامية لحجب طابعها الاسلامى وجعلها قاصرة على مفهوم مادى أو علمانى هذه المحاولة قد أثبتت فشلها ، إن تجربة القومية التى قادها البعث والناصرية وقدمها ساطع الحصرى وميشيل عفلق قد سقطت وإن البلاد العربية منذ نكسة ١٩٦٧ ترسم منهجاً جديداً لم تبلور بعد فى

إطار وحدة إسلامية . لقد سقطت التجربة الماركسية لأنها عجزت عن أن تحقق شيئاً .

• • •

الإسلام : وطنية المسلم وقوميته والعرب منذ اليوم الأول حين أسلم أصبحت حماسته وعصبيته للإسلام لا لقبيلة ولا لغيرها يحمى أرض الوطن لأنها بيضة الاسلام فالمسلم مسلم أولا وعربى ثانياً .

إن خطأ الفلسفة أنها تعتمد على العلم التجريبى المتغير ، والذى يفسد بسرعة ، إن الغرب قال إن الدين عائق عن التطور لأنه عرف اليهودية والمسيحية ولكنه لم يعرف الإسلام ولو عرفه لما قال ذلك بحق .

إن الفكر الغربى لا يستطيع أن يقدم أحكاماً مجردة بعيدة عن تحديات العصر والتاريخ وعن الهوى ذلك لأن الغرب قد جعل النظرية المادية هى رد فعل الكهنوت ، كما أن الماركسية هى رد فعل الرأسمالية

• • •

إن الدعوة إلى الحوار مع المسيحية تحمل طابع الخداع ، ذلك لأنها تهدف إلى الوصول إلى إقرار مسلمة خاطئة ، بأنه لاخلاف هناك بين المسيحية والاسلامية . وإن هذه الخلافات أكاديمية ، وهذه محاولة لرد تطلعات الغربيين الراغبين فى الدخول إلى الإسلام وهدمها وإشاعة اليأس فى نفوسهم (وهى نفس المحاولة التى جربها بعض رجال الاستشراق) .

والحقيقة إن هناك وجوه عديدة من الاختلاف العميق يجب أن تكون واضحة وخاصة فى ثلاث : الصلب والتثليث والخطيئة .

• • •

إن بعض الكتاب الغربيون يدرسون الإسلام مدفوعين بسوء النية أو بسوء الفهم وهم لا يتصورون أى شىء إلا فى حدود مفاهيمهم وعقليتهم الغربية التى تعودت على ربط الظواهر الإنسانية بالجنس واللغة والقومية فى حدود الفكر المادى القائم على المحسوس ومن هنا كان الإسلام عندهم ظاهرة قومية نشأت عن ظروف العرب الاجتماعية والاقتصادية .

إن العودة إلى المنابع هى صلب دعوة مدرسة الأصالة منذ الإمام أحمد بن حنبل حتى صاغها ابن تيمية وابن القيم فى منهج أصيل هذا المنهج لم يتوقف عن أن يحمله المجاهدون جيلا بعد جيل ، فلم يخل منه جيل حتى جاء الشيخ محمد عبد الوهاب فأنجح الله قصده وارتبط المنهج الربانى بالحكم فقامت دولة : هذه الدولة قد عايشت الأحداث وكان ظهورها مجدداً عام ١٩٢٦ بعد سقوط الخلافة العثمانية .

لقد كان على المسلمين أن يخوضوا حرباً مدمرة لا تخلص من واحدة حتى يستعد للأخرى فى سبيل الحفاظ على ذاتيته حتى أصبح مهمته الأولى: حماية كيانه ووجوده قبل أن يطور علومه وثقافته ، وما كادت الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع تستكمل شرائطها حتى جاءت الحروب الصليبية المدمرة التى استمرت قرنين من الزمان التى خرج منها المسلمين منهكين وكان سقوط بغداد على يد هولاكو فى منتصف القرن السابع الهجرى .

وفى النكسة الأخيرة كانت الخطة الموضوعة تصر على أن مصر لن تقوم من سقطتها إلا إذا تخلت عن عقيدتها وحطمت التقاليد وداست على تاريخها وتنكرت لإيمانها ، وشاء الله تبارك وتعالى أن يرفع أغلال الفكر الذى نرسف فيه بعد أن فشل الاتجاهين الليبرالى والماركسى ، لقد تجاوزت المجتمعات الإسلامية أزمة التبعية بعد أزمة التقليد إلى حتمية الحل الإسلامى ولم يعد غريباً أن يؤمن قادة الأمة إن سبب تأخر المسلمين وتسلط أعدائهم عليهم عائد إلى جنوحهم

العقائد الوافدة والهدامة التي نفثت سمومها في صفوف المسلمين وفتتت من عزائمهم وأغرت أعدائهم من شيوعيين وصهيونيين بالسطو على حرمات الإسلام (كما عبر عن ذلك الملك فيصل في استقبال حملة الشهادات العالية في محرم ١٣٩٣)

. . .

« لا يؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ ممن سوى ذلك : لا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه ولا من صاحب سفه يعلن بالسفه وإن كان من أردى الناس ولا من رجل يكذب على الرسول ﷺ ولا من رجل له فضل وصلاح وعبادة إن كان لا يعرف ما يحدث به » (الإمام مالك) .

رقم الإيداع ٥٨١٧/١٩٨٨

مطبعة دار البيان بمصر
ت/ ٩٢٨٦١٩